مجلد ٨ — عدد ٣٢ — مايو ٤٨

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين	حول رسائل سيسرون	٥٠٧
محمد رفعت	مشكلة تريستا والبحر الأدرياتى	٥٢٠
سليمان حزين	مرحلتان فى تاريخ مصر العام	٥٢٩
عبد الكريم بن ثابت	ليل وصباح (قصيدة)............	٥٣٩
ج. ب. سارتر	البحث عن المطلق	٥٤٢
ابراهيم محمد نجا	على الشاطئ (قصيدة)	٥٥
سلامه موسى	السيمائية	٥٥٦
حسن محمود	سافونارولا	٥٦٤
عقيل هاشم	مكسيم غوركى	٥٧٦
هيلدية زالوشر	فن الكتابة	٥٨٦
محمد عبده عزام	مسودات الشعراء	٥٩٤
محمود محمود	الآراء التى تسيرنا	٥٩٩
حمزه طاهر	شاعر فيلسوف	٦١٠
حسن كامل الصيرفى	تفاؤل (قصيدة)	٦١٦
هنرى برلين	الدانيمرك أثناء الاحتلال الألمانى وبعده .	٦١٨
بشر فارس	جولة مستطلع فى المسرح	٦٢٨

من هنا وهناك (مير بصرى — السيد فرج — يوسف يعقوب حداد)

شهرية الفن — شهرية السياسة الدولية — شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثا

فى مجلات الشرق — فى مجلات الغرب

تصدرها دار الكاتب المصرى

[illegible]

القاهرة

الكاتب المصرى

جمادى الثانية ١٣٦٧ — مـايو ١٩٤٨

السنة الثالثة — مجلد ٨ — عدد ٣٢

حول رسائل سيسرون

لست فى حاجة إلى أن أعرف إليك سيسرون ، كما ينطق به الفرنسيون ، أو تشتشيرون ، كما ينطق به الايطاليون ، أو كيكيرون ، كما ينطق به اللاتينيون فيما يقال . فهو زعيم الخطابة اللاتينية غير منازع ، وهو الزعيم الثانى للخطابة العالمية غير منازع أيضاً بعد ديموستين الخطيب اليونانى العظيم . والعلم بمكانته فى الخطابة ، وبمكانته فى السياسة ، وبمكانته فى الفلسفة ، وبمركزه الممتاز فى حياة الجمهورية الرومانية ، وجهاده فى الاحتفاظ بهذه الجمهورية ، وموته فى هذا الجهاد ، من أوليات الثقافة التى تلقى إلى الشباب فى مدارسهم الثانوية . ولكنى مع ذلك سأحدثك عن سيسرون لأعرض عليك منه صورة أقل ما توصف به أنها مخالفة كل المخالفة لما توارثت الأجيال من أمره منذ عشرين قرنا .

ولست أنا الذى أستكشف هذه الصورة أو أبتكرها ، فلست من هذا كله فى شئ ، وإنما الذى استكشف هذه الصورة وعرضها على الناس ، عالم فرنسى عظيم ، هو الأستاذ جيروم كاركوبينو عضو المجمع العلمى الفرنسى ومدير مدرسة المعلمين العليا فى باريس سابقاً ، والذى امتحن امتحاناً قاسيا أثناء الحرب الأخيرة ؛ لأنه تولى وزارة التربية الوطنية فى حكومة الماريشال بيتان ، فخرج من هذا الامتحان نقيًّا رضيًّا . وهو يعرض علينا هذه الصورة فى كتاب ضخم يأتلف من مجلدين ، وتنيف صفحاته على تسعمائة صفحة

وقد ظهر هذا الكتاب فى أوائل هذا العام ، فتلقاه النقاد أحسن لقاء ، وقدموه إلى القراء تقديماً مختلفا : فمنهم من قدمه تقديما فيه شيء من دعابة وعبث ، ومنهم من قدمه تقديما فيه شيء من غضب وغيظ . ولكن الكتاب أرفع مكانة من عبث العابثين ، وغضب الغاضبين ، لأنه آية من آيات البحث العلمي الرفيع بأدق معانى هذه الكلمة وأعمقها وأوسعها فى وقت واحد .

فأما الذين قدموا الكتاب فى شيء من دعابة ، فهم النقاد الأدباء الذين ورثوا عن الأجيال هذه الصورة التقليدية لسيسرون ، وأقاموا حياتهم الثقافية عليها ، وشقوا أثناء التعلم والطلب بما كان الأساتذة يفرضون عليهم من ترجمة النصوص التى تركها هذا الكاتب العظيم . فهؤلاء قد نشأوا على أن سيسرون هو الصورة الصادقة للجد الذى ليس بعده جد ، والحزم الذى ليس بعده حزم ، والارتفاع عن صغائر الأمور ، والتنزه عما يشين رجل الصدق . وهو الذى تولى منصب القضاء الأعلى فى الجمهورية ، فكان أنزه القضاة وأعفهم وأكرمهم وأحرصهم على العدل وأشدهم توخياً للانصاف . وتولى رياسة الجمهورية ، فكان حازما صارما ، بعيد النظر نافذ البصيرة ، سديد الرأى ، منقذاً للوطن من شر عظيم . وتولى الحكم فى أحد الأقاليم ، فكان مثالا ممتازاً للنزاهة والعدالة والصرامة ، والضرب على أيدى الذين يستغلون أهل الأقاليم ويستذلونهم ويتخذون أموالهم معونة بينهم ، كما كان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول واشتغل بين ذلك كله بالمحاماة ، فكان أفصح المحامين لساناً ، وأرفعهم بياناً ، وأمضاهم حجة ، وأبعدهم عما يجانب كرامة المحاماة ، وأرحمهم للضعيف ، وأرأفهم بالمظلوم. وكان إلى هذا كله أستاذاً ممتازاً من أساتذة البيان ، وفيلسوفاً موفقاً ، وحكيما مهذباً ، معتدل الرأى ، معتدل السيرة ، معتدل المزاج . وقد امتحنت الجمهورية الرومانية بدكتاتورية قيصر ، وطغيان أنطوان ، واستبداد أوكتاف . فقاوم الدكتاتورية والطغيان والاستبداد بيده ولسانه وقلبه ، ولقى حتفه فى هذه المقاومة حين ائتلف الطاغيتان أنطوان وأوكتاف ، وأهدرت بهذا الائتلاف دماء كثير من أعلام الجمهورية وأنصار النظام الموروث .

هذه هى الصورة التى توارثتها الأجيال عن سيسرون منذ ألفى عام ، والتى نشأ عليها الأدباء والمعلمون والمتعلمون والمؤرخون . فلما ظهر هذا الكتاب ،

وعرض على الناس صورة مخالفة لهذه الصورة كل المخالفة ، لم يملك بعض النقاد نفسه ، فتلقى الكتاب وقدمه إلى الناس فى دعابة شامتة أو شماتة مداعبة . وكتب الأستاذ إميل هنريو عضو المجمع اللغوى الفرنسى ، فى جريدة «الموند» يظهر شماتته هذه المتفكهة المداعبة ، بهذا الكاتب العظيم الذى أشقى الشباب وما زال يشقيهم بنصوصه العسيرة ، وأشقى الناس وما زال يشقيهم بسيرته القاسية الصارمة وجده المروع البشع . ثم هو يظهر الآن بفضل هذا الكتاب رجلا من الناس ، فيه ما فى الناس من ضعف ، وفيه ما فيهم من عيوب . وأما العلماء والمؤرخون منهم خاصة ، فقد ضاقوا بهذه الصورة التى تغض من هذا الرجل الذى توارثت الأجيال رفعته واستيازه . وكتب الأستاذ مارو فى جريدة «الموند» الأسبوعية يقول : «إن سيسرون رجل مكذوب عليه» . والشئ الذى لا أشك فيه ، هو أن الشامتين بسيسرون والغاضبين له ، إنما أظهروا ما أظهروا من الشماتة والغضب ، لأنهم لم ينظروا فى الكتاب إلا أيسر النظر وأقله تعمقاً واستقصاء . فالكتاب ، كما رأيت آنفاً ، ضخم توشك صفحاته أن تبلغ الألف ، وهو على ذلك كتاب علم ، قد التزم صاحبه دقائق المنهج التاريخى فى عرض ما أراد عرضه من الحقائق ، وحل ما أراد حله من المشكلات . وقراءته ليست يسيرة ولا هينة ، وهى تحتاج إلى كثير من الأناة والصبر وحسن التأنى . والحكم له أو عليه لا ينبغى أن يصدر إلا بعد هذه القراءة المستأنية المستقصية الصابرة ، التى لا تحتاج إلى الأيام وإنما تحتاج إلى الأسابيع ، والتى لاتكتفى بنفسها وإنما تكلف القارئ كثيراً من مراجعة النصوص وامتحان الأحكام التى يصدرها المؤلف بالرجوع إلى ما يستشهد به من المصادر . وهذه المصادر كثيرة مختلفة ، منها القديم والحديث ، ومنها ما كتب باللاتينية وما كتب باليونانية ، ومنها ما كتب فى اللغات الحية على اختلافها . ولست أزعم أنى قد نهضت بهذه القراءة المستأنية المستبصرة ، ولكنى لست أزعم كذلك أنى سأحكم لهذا الكتاب أو أحكم عليه . فلست أحسن هذا العلم ، ولست أبيح لنفسى أن أحكم بين المختصين فيه ، وإنما أنا رجل متواضع ، معتدل المذهب والرأى والغاية ، لا أريد إلا إلى شئ يسير جدا ، هو أن أعرض على قراء العربية لوناً من ألوان البحث الذى يفرغ له بعض الناس فى أوربا وأمريكا ، وينفقون فيه حياتهم ، وينعمون إن أتيح لهم

أن ينفقوا حياتهم فيه ، ويجدون بعد ذلك جماعة من أكفائهم يتلقون ما يكتبون بالنقد والبحث فينكرون ويعرفون ، وجماعات أخرى من عامة المثقفين يتلقون ما يكتبون على أنه غذاء للعقول والقلوب ، ومتاع يستريحون إليه مما يملأ حياتهم من الهموم والخطوب . وأنا أرجو أن يكون فى إظهار قرائنا على هذا اللون من ألوان البحث ما يغرى شبابنا بالدرس الهادئ المستأنى الذى تخلص النية فيه للعلم وحده ، والذى لا تلتمس به منفعة قريبة أو بعيدة ، ولا تبتغى به شهرة واسعة أو ضيقة ، وإنما يقصد به إلى هذه المتعة العليا ، متعة المعرفة الخالصة التى تكشف الحق وتصحح التاريخ .

وينبغى أن أعرض هذا الكتاب مبتدئا من آخره لا من أوله ، ذلك أجدر أن يجعل فهمه يسيرا ، والعلم به محببا إلى النفوس .

فنحن فى أواسط القرن الأول قبل المسيح حين لم يبق من هذا القرن إلا ثلثه ، وقد تم الائتلاف بين أوكتاف وانطوان على الاستئثار بأمر الجمهورية الرومانية وأقاليمها ، وذهب فى سبيل هذا الائتلاف كثير من أنصار الجمهورية ، مات بعضهم فى الحرب ومات بعضهم بأمر المؤتلفين ، الذى صدر إما عن رغبة فى الانتقام ، وإما عن رغبة فى تثبيت النظام الجديد . وكان سيسرون من الذين قاوموا النظام الجديد ، بل كان على رأس المدبرين لهذه المقاومة فى مجلس الشيوخ ، عن أمره كانت جيوش الجمهورية تصدر فى مقاومتها للطغاة والمستأثرين فى البر والبحر وفى الشرق والغرب . فلما تم الائتلاف وأتيح الانتصار للمؤتلفين ، أهدر دم سيسرون فيما أهدر من الدماء ؛ فقتل سنة ثلاث وأربعين قبل المسيح . وكان لسيسرون صديق حميم ، أحبه منذ عهد الصبا ، ودرس العلم معه أثناء الشباب ، ثم تفرقت بهما طرق الحياة ، فمضى سيسرون فى طريق السياسة ، ومضى صديقه أتيكوس فى طريق المال . وامتاز كل من الرجلين فيما اختار لنفسه من طريق ، فامتاز سيسرون فى السياسة حتى أصبح فى بعض أوقاته رئيسا للجمهورية ، وظل فى أكثر حياته زعيما للديمقراطية المعتدلة . وامتاز أتيكوس فى المال حتى أصبح أضخم أهل روما ثراء وأوسعهم غنى ، وأعظمهم من أجل ذلك سلطاناً على الأغنياء والفقراء جميعاً . ولكن الرجلين على هذا التفرق احتفظا بالمودة الخالصة والصداقة الصافية ، واشتركا بحكم هذه المودة ، فى حب العلم والأدب والفن ، وهذا

الترف الرفيع الذى يتصل بحياة العقول والقلوب . وقد ورث أتيكوس عن أسرته ثروة ضخمة ، فلم يكد يجاوز طور الطلب حتى فرغ لهذه الثروة يدبرها ويثمرها وينميها ، وأقام بينه وبين السياسة سوراً كثيفاً حرم على نفسه أن يعبره أو ينفذ منه ، وحرم على السياسة أن تنفذ إليه مهما تحدث الأحداث ومهما تكن الخطوب . وهو من أجل ذلك يهجر مدينة روما حين تعصف بها الثورة السياسية فى أيام سولا ، ويعبر البحر إلى بلاد اليونان ، فيقيم فى أتينا وفى غيرها من المدن اليونانية ما شاء الله أن يقيم . حتى إذا هدأت الثورة واستقرت الأمور ، عاد إلى روما وقد أضاف إلى ثرائه ثراء ، وإلى علمه علما ، وقد استقر فى نفوس الساسة أنه ليس من السياسة فى شئ ، وأنه لا يريد أن يكون منها فى شئ ، وإنما هو رجل مال وعلم ، لا يريد أن يزيد على المال والعلم شيئاً . وهو من أجل ذلك صديق للساسة جميعاً مهما تكن أحزابهم ، ومهما يحسنوا أو يسيئوا ، ومهما تختلف بهم الظروف . قد زهد فى مناصب الحكم فتركها لهم ، وزهد فى مجلس الشيوخ فتركه لهم ، وزهد فى الطبقة الارستقراطية الممتازة فتركها للذين يسعون إليها من أصحاب الطمع والطموح ، وقنع بأن يثمّر ثروته ، وينشئ فى روما وفى الأقاليم مصرفاً هو أعظم المصارف وأكثرها تشعباً وأكثرها عملاء . فهو يقرض المحتاجين إلى أن يقترضوا ، ويدبر لأصحاب الثراء ثراءهم ، ويحفظ على أصحاب الأموال أموالهم . يعتدل فيما يأخذ على القروض من فائدة ، ويسخو فيما يرد على أصحاب الأموال من ربح ، ويكفل بذلك لنفسه حب الموسرين والمعسرين جميعاً .

وقد شغف أتيكوس بالفلسفة والأدب والفن ، فلم يلبث أن شغف بالكتب وجعل يجمعها وينشىء لنفسه خزانة كتب ممتازة ، ويسرت له ذلك إقامته فى بلاد اليونان وثروته الضخمة ، فجعل يجمع المخطوطات القديمة ونفائس الآثار ما وجد إلى ذلك سبيلا . وانتقل بهذا كله إلى روما ، ودعا الناس إلى داره ، فرأوا وقرأوا وأعجبوا ، وأحبوا أن يكون لهم مثل مارأوا من آيات الأدب والفن والفلسفة . وما هى إلا أن يصبح أتيكوس خبيراً يشير على المثقفين والمترفين ، ثم وسيطاً يشترى لهم من الكتب والآثار وطرائف الفن مايريدون . وعنده كتب كثيرة نادرة ليس من اليسير أن تقتنى ، وهو لا يعير شيئاً من كتبه ، فالناس مخيرون بين أن يسعوا إلى داره لينظروا فى هذه الكتب ، وبين

أن يستنسخوا هذه الكتب إن أرادوا أن يملكوها . ‌وإذا أتيكوس يؤلف جماعة من الرقيق المثقفين ، منهم من أتقن تنظيم خزانات الكتب والقيام عليها ، ومنهم من أتقن النسخ والمراجعة والمعارضة ، وإذا هو قد أنشأ داراً للنشر عظيمة الخطر فى روما ، يعمل فيها النساخ والمراجعون ينسخون للأدباء مايحتاجون إلى استنساخه من الكتب ، ويسبقون إلى نسخ طائفة من الكتب اليونانية واللاتينية تشتد إليها حاجة القراء . وما هى إلا أن تتسع دار النشر هذه ، فلا تكتفى بنسخ القديم وإذاعته ، وإنما تضيف إلى ذلك نشر الآثار التى ينشئها المحدثون . وإذا هذه الدار قد أصبحت أشبه شئ بدور النشر الحديثة التى نعرفها الآن ، لا يكاد الشاعر ينشىء ديواناً ولا يكاد الكاتب يؤلف كتاباً حتى يدفعه إلى أتيكوس ، فاذا هو ينسخ وينشر ، لا فى روما وحدها ، بل فى إيطاليا، ثم فى الأقاليم الرومانية فى الشرق والغرب. وكذلك أصبح أتيكوس أكبر رجال المال فى روما ، ويسر له ذلك الاتصال برجال السياسة على اختلاف أحزابهم وبأكبر رجال النشر للقديم والحديث ، ويسر له ذلك الاتصال برجال الثقافة على اختلاف أحزابهم أيضاً . وإذ كان سيسرون من المتازين فى السياسة والثقافة جميعاً —وسنرى أنه كان من المتازين فى المال أيضاً— فقد اتصلت الأسباب الوثيقة اليوميه بينه وبين أتيكوس . وقد أشرت آنفاً إلى أنهما كانا صديقين منذ أيام الطلب فى عهد الصبا والشباب، فقد زادت صداقتهما قوة وتوثقاً على مر الأيام وتعاقب الأحداث ، ومن المحقق أن أتيكوس كان أشد الناس بسيسرون صلة ، وأدناهم منه مكانة ، وأعرفهم بدخائل أمره كلها ، سواء منها ما يتصل بالحياة العامة وما يتصل بالحياة الخاصة فى أدق خفاياها . وكان أتيكوس قد احب مذهب أبيقور واتخذه لنفسه دينا ، وتأثرت به حياته العقلية ، كما تأثرت به سيرته اليومية اشد التأثر وأقواه . والقراء يعلمون أن أخص مايمتاز به مذهب أبيقور من الناحية الخلقية ، هو أنه يجعل اللذة غاية الغايات للانسان ، ويرى أن هذه اللذة لا تخلص ولا تستقيم لطلابها إلا إذا برئت من الألم ، فلم تعقبه ولم تورط فيه . فالرجل الحكيم فى هذا المذهب خليق قبل كل شئ أن يتجنب الألم ما وجد إلى ذلك سبيلا ، وأن يبتغى اللذة ما وجد إليها سبيلا أيضاً . وإذ كانت اللذات فى أكثر الأحيان مصادر للألم ودوافع إليه ، فالرجل الحكيم خليق أن

يتجنب اللذات نفسها ليتجنب ما تعقب من الألم . وخير للرجل الحكيم أن يفرض على نفسه حياة غليظة ساذجة فيها شئ من شظف وقسوة ، من أن يقبل على الحياة الهنية اللينة ويستجيب للمغريات ، فيستمتع بلذات كثيرة تدفعه إلى آلام كثيرة . ومذهب أبيقور يمتاز كذلك بأنه حرر الانسان من خوف الموت وما يمكن أن يكون بعد الموت . فالآلهة لا يحفلون بالانسان ولا يسألونه عن عمله ، ولا يجزونه بالخير خيراً ولا بالشر شرا ، وإنما الانسان مسئول عن نفسه أمام نفسه أثناء الحياة ، فاذا أدركه الموت فقد عاد إلى العدم الذى خرج منه حين دخل الحياة . وإذن فليس للانسان أن يفكر إلا فى حياته هذه التى يحياها ، يلتمس فيها لنفسه الخير والمنفعة ، ويصرف فيها عن نفسه الشر والمضرة ما استطاع إلى ذلك سبيلا . والصداقة نفسها عرض من أعراض هذه الحياة ، لا تلتمس لنفسها ، وإنما تلتمس لما تتيح للانسان من لذة ومنفعة . فالانسان خليق أن يلتمسها ويستمسك بها ما أتاحت له لذة ومنفعة . وهو خليق أن يجتنبها ويتخلص منها إن عرضته لشر أو ضر . وهو خليق ألا يحفل بها ولا يلتفت إليها إن لم تغن عنه شيئاً .

كذلك كانت الصداقة التى ادخرها أتيكوس لخليله الوفى الحميم سيسرون ، صداقة قوية متينة ما جلبت له نفعاً ولذة . وكان سيسرون مصدراً للذة والنفع جميعا : مصدراً للنفع لمكانه من السياسة والسلطان ، ومصدراً للذة لمكانه من الثقافة العليا ، وما امتاز به من رقة الشمائل وعذوبة الحديث ، وجمال المحضر والمغيب . ومن أجل ذلك كان الرجلان يلتقيان فى كل يوم إن أتيح لهما اللقاء ، فان حيل بينهما وبينه عمدا إلى الرسائل تغنيهما عن هذا اللقاء . ولم يقف الأمر بين الرجلين عند هذه الصداقة ، وإنما نشأت بينهما صلات المصاهرة ، فتزوج كنتوس سيسرون أخو أديبنا العظيم من بونبونيا أخت أتيكوس مالينا العظيم أيضاً . فليس من الغريب أن يلجأ سيسرون إلى صديقه وصاحب صهره فى كل ما ينوبه من الأمر . فهو مدبر ثروته ومستشاره فى السياسة ، وناشر كتبه ومنظم مكتبته ، والداخل فى الجليل واليسير من أمره كله ، حتى يقتل سيسرون فى أواخر سنة ثلاث وأربعين قبل المسيح .

وقد يسأل القارئ ما حاجتنا إلى هذا التفصيل الطويل ؟ فلينتظر قليلا ، فستظهر الحاجة إلى هذا التفصيل واضحة كل الوضوح ، بعد أن نضيف لها

تفصيلا آخر يتصل بحياة أتيكوس نفسه. فقد أشرت إلى تأثره بمذهب أبيقور، واضطراره بحكم هذا المذهب إلى أن يتجنب الانغماس فى الترف واللذة، وقد دفعه ذلك إلى أن يعيش أعزب دهراً من حياته، ثم اختار لنفسه زوجاً ليست ممتازة الطبقة، وإنما هى من أسرة ضئيلة فقيرة ليست بذات خطر. ورزق من هذا الزواج طفلة لم يمنحها من عنايته إلا مقدارا معتدلا. ولكن ثراءه وحياده وثقافته وامتياز مكانته فى روما، كل ذلك قرب منه أوكتاف، حين استقامت له الأمور وأصبح مستأثراً مع أنطوان بالسلطان الرومانى، وإذا هو صديق لأتيكوس، وإذا هو يتجاوز الصداقة إلى الصهر، فيصبح حفيده ختنا لأتيكوس. وحفيده هذا هو الذى سيخلف أوغسطس على عرش الامبراطورية الرومانية، بعد موته، وسيسمى تيبيريوس.

هذه الصلات التى توثقت بين أوكتاف عظيم السياسة الرومانية، وأتيكوس عظيم المال الرومانى، هى التى دفعت أتيكوس إلى نشر الرسائل الخاصة التى كتبها سيسرون، والتى اتخذها الأستاذ جيروم كاركوبينو موضوعا لكتابه، واستخرج منها الصورة الجديدة لسيسرون، فأثارت ما أثارت من الرضا والسخط ومن الوفاق والخلاف. والفكرة الأساسية لهذا الكتاب، وهى التى لم يلتفت اليها النقاد الأدباء لأنها تعنى العلم أكثر مما تعنى الأدب، هى أولاً أن رسائل سيسرون إنما نشرت فى عهد أوكتاف قبل أن ينفرد بالحكم، وأثناء التنافس الشديد بينه وبين أنطوان، وأنها نشرت بواسطة أتيكوس، وصدرت عن داره تلك التى أشرنا إليها منذ حين، ونشرت على دفعتين: إحداهما بين سنة خمس وثلاثين واثنتين وثلاثين قبل المسيح، وهى تشتمل على الرسائل الخاصة التى كتبها سيسرون لأتيكوس. والثانية سنة اثنتين وثلاثين قبل المسيح، وهى تشتمل على الرسائل الخاصة التى كتبها سيسرون إلى ابنه وأخيه وصديقه بروتوس ونفر آخرين من الأصدقاء.

فأما الجزء الأول من هذه الرسائل، فقد نشر دفاعاً عن أوكتاف وأنطوان اللذين قتلا سيسرون. وأما الجزء الثانى فقد نشر مبالغة فى إذاعة الدعوة لأوكتاف حين اشتدت الخصومة والمنافسة بينه وبين أنطوان. وكان سيسرون ضحية لنشر الجزأين جميعاً، فهو نشر قصد به إلى السياسة لا إلى الأدب، وإلى الغض من سيسرون لا إلى التنويه بذكره والاحسان إليه. قصد بالجزء

الأول إلى إظهار ما امتلأت به حياة سيسرون من الاضطراب الشديد الذى يتصل بالسياسة ، ويتصل بالمال ، ويتصل بالأخلاق ، ليتبين الناس أن الذين قتلوا سيسرون لم يقتلوا فيلسوفاً مصلحاً عظيما ممتازاً فى خلقه وسيرته ورأيه ، وإنما قتلوا سياسياً متقلباً مسرفاً فى التقلب ، أنفق حياته كلها ملتمساً لمنفعته الخاصة القريبة الحقيرة ، مخادعاً للناس عن نفسه وعن آرائه وعن سيرته . فهو يزعم أنه أنقذ الجمهورية حين كان رئيساً لها من خطر الثورة ، مع أن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه كان صديقاً لكاتلينا زعيم الثورة ، ولم يهاجمه إلا حين عجز عن أن ينتفع به . وهو يزعم أنه كان نصيراً للنظام الجمهورى حين ظهر يوليوس قيصر ، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه تقرب إلى قيصر حتى ظفر منه بالعطف والعفو والأمن ، وظل يتملقه ما استقامت له الأمور ، فلما قتل شمت بقتله ، وابتهج لموته ، وظاهر قاتليه . وهو يزعم أنه نصير للنظام الجمهورى بعد مقتل قيصر ، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه تملق أنطوان ما وسعه التملق ، وتملق أوكتاف ما وجد إلى تملقه سبيلا . فاذا كان أوكتاف وأنطوان قد قتلاه لأنه تنكر لهما قبل ائتلافهما ، فهما لم يزيدا على أن قتلا خصما سياسيا كاد لهما وألب عليهما ، وجدّ فى حربهما بعد أن كان لهما صديقاً يبتغى إلى مودتهما الوسائل . فحبه للنظام الجمهورى كذب إذن ، لأنه لم يحب إلا نفسه ، ولم يبتغ إلا منفعته . وأخلاقه لم تكن ذات خطر ؛ فقد كان شرها إلى المال ، تعترف عليه كتبه بأنه ارتشى من قيصر أولا ومن غير قيصر ثانياً ، وبأنه ملك فى روما وخارج روما ثمانى عشرة داراً ، من تلك الدور الفخمة التى كان الأغنياء الرومانيون يملكونها ، وكانت قيمة تلك الدور نحو عشرين مليوناً من الدراخمات . وكان مسرفاً شديد الاسراف ، يدفعه الاسراف إلى الاعسار أحياناً ، ويدفعه الاعسار إلى التماس المال من غير وجهه . فهو يطلق امرأته التى عاشت معه خمسة وثلاثين عاماً وولدت له ابنه ماركوس وابنته توليا ، لسبب واحد وهى أن امرأته لم تمكنه من ثروتها حين احتاج إلى هذه الثروة ، فيطلقها . ويتزوج وقد قارب الستين فتاة فى العشرين من عمرها لا لشئ إلا لثروتها . وهو يدفع ابنته إلى الزواج والطلاق ثلاث مرات للمال وللمال وحده ، حتى تموت البائسة حزناً. ثم هو يزعم أنه محام نزيه ، حريص على كرامة المهنة ، ولكن نزاهته هذه

ظاهرة لا تثبت أمام البحث والتمحيص . فقد كان قانون المحاماة يحظر على المحامين أن يأخذوا من موكليهم أجوراً لما ينهضون به من أعباء الدفاع عنهم أمام القضاء . وكان سيسرون نفسه يخاصم بعض زملائه ، ويزعم أنهم يتقاضون هذه الأجور التي يحظرها القانون ، ولكنه هو نفسه كان يتقاضى أجره من موكليه بطرق ملتوية لا تلائم النزاهة ولا الشرف . فكتبه تشهد عليه بأنه كان يتفق مع موكليه مشافهة على أن يهدوا إليه الهدايا بعد أن يكسب لهم قضاياهم . وكانت هذه الهدايا تحمل إليه ، ولم تكن يسيرة ولا هينة ، وإنما كانت ضخمة عظيمة الخطر . فهو مثلا قد ترافع عن أهل صقلية حين اتهموا حاكمهم بالاسراف عليهم فى البغى والظلم ، فلما ربح لهم قضيتهم أهدوا إليه سفنا كثيرة قد شحنت قمحاً ، وكانت روما فى حاجة إلى القمح ، وكان سيسرون يرشح نفسه للانتخاب فى منصب من صاحب الدولة ، فما هى إلا أن يوزع القمح على أهل روما وينجح فى الانتخاب . وترافع مرة عن أحد موكليه فأهدى إليه بعد أن ربح القضية خزانة كتب كاملة كان يملكها فى بلاد اليونان ، واحتاج نقلها مما وراء البحر إلى جهد عظيم وعناء كثير . ثم هو كان يزعم أنه رجل شريف فى سيرته السياسية وفى كل ما يتصل بالانتخاب خاصة ، ولكن كتبه تشهد عليه بأن سياسته لم تكن إلا مداورة ومصانعة ، وأنه كان يصطنع من إفساد الانتخاب ، برشوة الناخبين وأخذ أصواتهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة أخرى ، ما كان يصطنعه غيره من المرشحين لمناصب الدولة .

وكان بعد هذا كله ، ينصح فى كتبه وخطبه بالقصد والاعتدال وإيثار الشظف والخشونة . ولكن رسائله الخاصة تشهد عليه بأنه كان مترفا مسرفا فى الترف ، يغلو فى حب المظاهر ، ولا يطمئن إلا إذا نال من مظاهر الثروة والرفعة ما يلائم غروره الذى لاحد له . وكان على هذا كله شجاعاً فى القول جباناً فى السيرة ، يخاف حتى من ظله ، ويتملق رغبة فى التملق وخوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته ، ثم يسخر من هذا كله فى رسائله الخاصة ، لأنه لم يكن يريد إلا أن يحيا ويستمتع بالحياة . وكان يخاصم الحكام المرتشين ويعرضهم للقضاء عليهم بالغرامات . ولكن كتبه تعترف عليه بأنه حين تولى الحكم فى بعض الأقاليم أظهر سيرة حسنة ورفقاً بالرعية ، ولكنه أضمر مكراً وقسوة ،

واستغل منصبه استغلالا منكراً . كل هذه الخصال والآثام تشهد بها الرسائل الخاصة التى أرسلها إلى صديقه أتيكوس ، وقد ارتفعت بينهما الكلفة وزال بينهما الحرج ، فأفضى كل منهما إلى صاحبه بذات نفسه فى غير تحفظ ولا احتياط.

وواضح جدا أن نشر هذه الرسائل بأمر أوكتاف إن قصد به إلى شئ فانما يقصد به إلى الكيد لسيسرون بعد موته ، و إلى الاذاعة التى تُظهر من ثنائه على قيصر وأوكتاف وأنطوان ما كان يخفى ، ليعلم الجمهوريون أنه لم يكن زعيما مخلصاً صادقاً ، و إنما كان طالب منفعة وصاحب رياء .

أما الجزء الثانى من رسائل سيسرون فقد اشترك فى نشره ماركوس بن سيسرون وتيرون سولاه ، وأشرف على عملهما أتيكوس نفسه . وهو يشتمل على رسائله إلى أعضاء أسرته ، وإلى بعض أصدقائه ، وإلى بروتوس منهم خاصة . وفى هذه الكتب ذم أى ذم لأنطوان وتحريض عليه ، وثناء على قيصر وأكتاف ، و إظهار لتلون سيسرون فى السياسة من جهة ، ولضعفه وغفلته من جهة أخرى . فواضح أن نشر هذه الرسائل يؤيد سياسة أو كتاف ويؤلب الناس على أنطوان . وقد نشرت هذه الرسائل بالضبط فى الوقت الذى كان الخصمان فيه يتهيآن للحرب التى انتصر فيها أوكتاف .

وهنا تثار مسألتان خطيرتان : إحداهما تتصل بالتاريخ قبل كل شئ ، وهى إلى أى حد يمكن الاطمئنان إلى هذه النظرية التى تجعل إذاعة هذه الرسائل مظهراً من مظاهر نشر الدعوة السياسية ؟ والجواب على هذا السؤال يسير ولكنه رائع حقا . فقد أظهر الأستاذ كاركوبينو أن السياسة الدكتاتورية فى عهد قيصر وابنه أوكتاف ، لم تكن أقل مهارة ولا براعة ولا افتتاناً فى نشر الدعوة من سياسة الدكتاتورية فى العصر الحديث . فقد ابتكر قيصر لأول مرة فى التاريخ ، إنشاء الصحيفة اليومية التى تعلن فى روما وتذاع فى إيطاليا ، وترسل إلى الحكام فى الأقاليم ، ويقرأ الناس فيها الحوادث التى تجدّ فى كل يوم . وبهذه الطريقة ابتكر قيصر السيطرة على العقول من طريق القراءة . ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما ابتكر قيصر كذلك البلاغات الرسمية التى تعلن إلى الناس أنباء الحرب كما تحب الحكومة أن تعلنها . ثم ابتكر الرقابة على ما يقرأ الناس من الكتب فى المكاتب العامة ، فلم يكن يسمح لكتاب أن يعرض للقراءة إلا إذا أقره السلطان وأذن بقراءته

ورضى عما فيه . وليس أدل على أن رسائل سيسرون إنما نشرت لاذاعة الدعوة من أن ردود أتيكوس عليها لم تنشر ، ومن أن أتيكوس قد ظفر بالحظوة كل الحظوة عند أوكتاف، حتى أصبح صهراً للأسرة الامبربطورية ، ومن أن ماركوس بن سيسرون قد ظفر بالأمن بعد أن كان طريداً أهدر دمه ، ثم ظفر بالحظوة عند أوكتاف ، حتى بلغ المناصب الرفيعة فى الدولة ، واستمتع بحياة لاهية مترفة كان يحب الفراغ لها أيام أبيه .

أما المسألة الثانية ، فهى إلى أى حد يمكن الاطمئنان إلى أن أتيكوس قد خان صديقه بعد موته على هذا النحو البشع ، وإلى أن ماركوس قد خان أباه بعد موته على هذا النحو البشع أيضاً ؟ فأما أتيكوس فقد رأيت أن مذهبه فى الأخلاق كان يعفيه من إثم هذه الخيانة . فقد كان سيسرون صديقه حين كان حيًّا يرتجى نفعه ويتقى شره، فأما بعد أن مات ، فقد دخل فى العدم المطلق الذى لا يرتجى من أهله خير ، ولا يتقى منهم شر . وليس على أتيكوس بأس أمام مذهبه الخلقى من أن يخون ميتا ليخدم حيًّا ، هو المستأثر بالسلطان الذى يملك النفع كل النفع والضر كل الضر ، ويتحكم فى حياة الأحياء . وأما ماركوس فقد كان منذ شبابه الأول صاحب مجون ولهو وفراغ ، فهو ضعيف الطبع قصير الهمة ، وهو بعد مدين بحياته لأوكتاف، فكيف إذا أضاف أوكتاف إلى حياته شيئاً غير قليل من الشرف والترف والجاه ! والناس بعد ذلك هم الناس ، فى أكثرهم الضعف والخور والتهالك والأثرة ، وغير هذا كله من الخصال التى تغرى بالمكر والغدر ، وتدفع إلى الخيانة والاثم ، وتورط فى أشياء كثيرة تأباها الأخلاق المكتوبة التى يقررها الفلاسفة ويدعو إليها المصلحون ، وتجيزها السيرة العاملة ، تجاهر بها أحياناً ، وتخافت بها أحياناً أخرى ، وتلتمس لها دائماً ما يقبل ومالا يقبل من التعلات والمعاذير .

أما أنا فقد أنفقت فى قراءة هذا الكتاب أسابيع ، ووجدت فى هذه القراءة فنوناً من الأدب والسياسة والتاريخ وفلسفة الأخلاق . ولم تثر هذه القراءة فى نفسى شماتة بسيسرون ولا رحمة له ولا إشفاقاً عليه . فما يضر الموتى أن يشمت بهم الشامتون ، ولاينفعهم أن يشفق عليهم المشفقون . وقد كان سيسرون رجلا من معاصريه ، فيه ما فى معاصريه من خصال الخير والشر ، ولكنه

امتاز من معاصريه بتفوق عقله وقلبه ولسانه ، وفرض من أجل ذلك نفسه على الانسانية كلها إلى آخر الدهر .

والمثقفون يقرءون أطرافاً من حياة قيصر وابنه أوكتاف ، ثم لا يلبثون أن ينسوا ما قرءوا . ولكن المدارس والجامعات ستكوّن عقول الصبية والشباب بأدب سيسرون . وليس المهم أن يكون سيسرون رجلا خيراً أو شريراً ؛ وإنما المهم أن يكون سيسرون قد ترك من الآثار ما ينفع الناس . ثم إن قراءتى لهذا الكتاب لم تثر فى نفسى شيئاً من السخط قليلا أو كثيراً ، على الذين خاصموا سيسرون فى حياته ، أو خانوه بعد موته . فالناس دائما هم الناس ، فيهم شر كثير وخير قليل ، ولم يصلوا بعد ذلك إلى العصر الذهبى الذى يصبحون فيه أخياراً أطهاراً لا يجد الشر إليهم سبيلا . وإنما الذى أرضانى كل الرضا ، وأمتعنى كل الامتاع ، وعزى نفسى عما تمتلئ به الحياة الواقعة اليومية ، هو التفكير فى هذا الأستاذ الشيخ الذى لم تصرفه الأحداث الخطيرة التى يمتحن بها العالم منذ سنين ، والتى امتحن بها وطنه أعسر الامتحان وأقساه ، والتى امتحن بها هو فى ذات نفسه امتحانا أليماً — لم تصرفه هذه الأحداث عن أن يفرغ لرسائل سيسرون ، فيدرسها هذا الدرس، ويخرج لنا هذا الكتاب الذى إن صور شيئاً فانما يصور الشجاعة والصبر والجلد والتجرد للعلم الخالص ، والفراغ لاستكشاف الحق من حيث هو حق ، مهما تكن الأحداث والخطوب والظروف . فأما دقة البحث وحسن الاستقصاء وجودة الاستنباط ، فانما هى خصال العلماء . وصاحب هذا الكتاب عالم ممتاز بين العلماء .

طه حسين